ثورة فى الأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

[تتمة]

على أنه ما بالكاتب من حاجة إلى الإلحاح فى بيان أن هذا الزهد البالغ الذى يدعو إليه مذهب الغزالى ومن نحا نحوه لا يتفق والدين والعقل ، وأنه من معوقات الأمة عن النهوض . لا يحتاج الكاتب لشىء من هذا ، فإننا شغلنا بالدنيا حتى لا يخطر لنا الزهد فيها على بال ، ولكنا فى حاجة لبيان أن بعضاً من الفضائل التى دعت إليها تلك المذاهب وأكبرت من شأنها لا تعد اليوم من الفضائل فى شىء ، بل بعضها انقلب بسوء الفهم والتطبيق إلى رذائل ، وصار أحجار عثرة فى طريقنا للرقى والنهوض . وحسبى أن أمثل لهذا بصفة القناعة

لقد اتفقنا منذ عصور طويلة على أن القناعة فضيلة ، وقلنا فى بيان مكانتها إن القناعة كنز لا يفنى ، فكانت العاقبة شراً ووبالاً على الشرق ومنه مصر !

قنع الفلاح بغلة ما ورثه من الأرض فلم يغير - إلا قليلاً - من طرق استغلاله لما يملك ، ولم يعمل بجد على تنمية ثروته ، قانعاً بما يرزقه الله من دخل لا يزيد عن معيشته معيشة الكفاف !

وقنع الصانع بأجره اليومى الذى لا يرتفع به فى حياته إلا قليلاً عن مرتبة الحيوان ، فلم نجد من صناعنا إلا خولا وأجراء لأصحاب الأعمال الغربيين الذين وضعوا أيديهم على أكثر موارد ثرواتنا ، والذين استغلوا ما يحيط بنا من صحارى فيها الزيت والحديد والذهب والمعادن الأخرى !

وقنع جمهرة تجارنا بالربح الزهيد الذى يتبلغون به من يوم ومن عام لآخر ، فقل منهم المغامرون أصحاب المتاجر الضخمة الواسعة !

وإذا تجاوزنا الحياة المادية للحياة المعنوية ، وجدنا الحال أمر وأدهى للألم . فقد قنعنا بما ورثنا عن الأسلاف من علم فلم نحاول أن نزيد فيه ، بل لم نعمل على تمحيصه ! وإنما قنعنا بما وصل إلينا من كتب ومؤلفات ، فأقبلنا على دراستها دون أن نجعلها أساساً نبنى عليه ، حتى صار منا ونحن فى القرن الرابع عشر الهجرى من يعيش بعقلية القرون الوسطى ! كما قنع التلاميذ بالفهم السطحى دون العميق ، وبالنجاح فى الامتحان دون العمل للعلم لأنه فى ذاته حسن وجميل وعامل من أقوى العوامل على المعيشة فى عز وكرامة وسعادة ! ولا أظننى مبالغاً فى شىء من هذا الذى أقول ! وإلا فأين ما تخرجه هنا دور الطباعة من المؤلفات فى العلوم التى نقرأها ونتدارسها منذ مئات السنين ؟ لكم تمنيت أن ناراً تنزل من السماء فتلتهم أكثر ما نملك من أسفار قديمة ، على ما فيها من خير كثير ليكون ذهابها حافزاً لنا على الإنتاج فى العلم ، وعلى التخلص من الآثار الوبيلة لما جره علينا اعتقادنا بأن القناعة من الفضائل ! فقد أمات هذا الاعتقاد منا الهمم والعزائم ، وكان عاملاً من عوامل التثبيط والركود ، وسبباً من أسباب وقوف أولياء أمورنا فى السياسة والإدارة والعلم عند حد عدم النزول عن المستوى الموجود الذى يقنعون به ، ويقولون فى أنفسهم حسبنا أن تسير القافلة فيما رسم لها من طريق قبل أن نلى ما ولينا من أمور هذا البلد !

وأخيراً ، لست أدعو بهذه الكلمة إلى أن يكون المرء شرهاً لا يقف عند حد فى رغباته ، فهذا أيضاً رذيلة كالقناعة بالدون سواء بسواء ، إنما أدعو إلى أن نتأسى بالرسول الكريم والصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، فنبذل الجهد فى طلب كل ما يمكن من خير لأنفسنا وأمتنا ، مستغلين فى هذا خير استغلال ما وهبنا من قوى مادية ومعنوية فى سائر نواحى الحياة ، ثم بعد ذلك نقنع بما نصل إليه بعد طرح الكسل وبذل المجهود ، ففى هذا خير الدين والوطن والسعادة الخاصة والعامة . هكذا كان صنيع الصحابة الراشدين حين لم يقنعوا بالعيش آمنين فى جزيرة العرب ، وتعدوها إلى ممالك الروم والفرس ففتحوا منها ما شاء الله ، وعاشوا أعزة سعداء ، ضاربين لمن أتى بعدهم وللعالم أجمع فى هذا أحسن الأمثال . والله يهدى للرشد ، ومنه الخير والتوفيق والسداد

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

أحب أن يقرأ الناس هذا الكتاب للعقاد ، وأن يقرأوا معه «حديث الأربعاء» للدكتور طه حسين ، فسيجدون فيهما طبيعتين وطريقتين : طبيعة التعمق وطبيعة الاستعراض ؛ وطريقة التحليل وطريقة التصوير . وسيرون كلا من هاتين الطبيعتين والطريقتين تلازم صاحبها فى كل ما يكتب ، فهى أصيلة فى خلقهما أصالتهما فى فنهما ، وإن كان لكل منهما وزنه الذى لا يتسع المجال له هنا ، بقدر ما أرجو أن يتسع له فى كتاب !

سيد قطب